

تجليات صور النقد الأدبي التطبيقي في مؤلفات أبو القاسم سعد الله

Manifestations of applied literary criticism in the writings of Abu Al-Qasim Saad Allah

د. متلف آسية

Metlef.assia@gmail.com

جامعة حسيبة بن بوعللي بالشلف - الجزائر

ملخص:

لن نبالغ في شيء إن وصفنا أبا القاسم سعد الله بأيقونة النقد الأدبي الجزائري، وأحد أهم رموز الثقافة الجزائرية، بل أبرز مبدعيها ومفكريها ونقادها لتنوع إنتاجه الثقافي ودقة بحوثه الموسوعية و الأكاديمية والمنهجية، التي أضفت صبغة حضارية راقية للجامعة الجزائرية، وساهمت في تطوير منهج الحياة على أصعدتها المختلفة.

وإذا حاولنا الحديث عن أصول النقد الأدبي الجزائري في مستوييه النظري والتطبيقي، لا يمكننا إغفال تجربة أبي القاسم سعد الله والتي تعد أهم تجربة نقدية جزائرية لها مواصفات النقد المنهجي التطبيقي، لأنه لم يكتف بطرح الآراء النقدية منعزلة عن دراسة نصوص متعددة عند أكثر من شاعر وأديب وكاتب مسرحي ورحالة، وهذا ما جعلنا نصف تجربته النقدية بالتميز ودقة الطرح والمنهج.

الكلمات المفتاحية: النقد الأدبي عند أبو القاسم سعد الله - صور النقد الأدبي - مؤلفاته النقدية.

Abstract:

We will not exaggerate anything if we describe Aba Al-Qassem Saad allah as the icon of Algerian literary criticism and one of the most important symbols of Algerian culture where if we try to talk about the origins of Algerian literary criticism in its theoretical and practical levels, we cannot ignore the experience of Abi Al-QassemSaadallah, which is the most important Algerian critical experiment that has the characteristics of applied methodological criticism, because he was not satisfied with presenting critical opinions isolated from studying multiple texts by more than one poet, writer , playwright and traveler, this can permit to us to describe his critical experience with distinction, accuracy of presentation and method.

key words: Literary criticism according to Abu Al-Qasim Saad, the pictures of literary criticism, his critical writings.

توطئة:

لا يزال النقد الأدبي الجزائري يطرح مجموعة من الإشكالات والقضايا ويشغل بال الكثير من الباحثين والنقاد، وذلك لمروره بمراحل طغت عليها صبغة ضبابية جعلته مبهم الحدود ومتقلص الأبعاد، ونخص بالذكر فترة الاحتلال وما سبقها وما تميزت به الدراسات النقدية والأدبية من ركود وضعف، ما جعل النقاد يستسلمون لفكرة أنّ الأدب الجزائري ومعه النقد ضعيف على مستوى الشكل والمضمون من جهة، وأنّه وليد العصر الحديث من جهة ثانية، وعلى الرغم من صعوبة البحث والتنقيب في أصول الأدب والنقد الجزائري لضياح شواهد، إلا أنّ هذا لم يثبط من عزيمة ثلة من النقاد الغيورين على تاريخ الأدب الجزائري ونقده، والذين حاولوا التنقيب عن جذوره فاستمروا في الدرس النقدي تاريخاً وتحليلاً وفي مقدمة هؤلاء "أبي القاسم سعد الله" وجهده المضيئ في إبراز هوية هذا الدرس على المستويين النظري والتطبيقي.

ولعلّ أكثر ما يبرر فكره الموسوعي تنوع إنتاجه بين النقد النظري والتطبيقي، الذي سناحول الإمام به من ثنايا مؤلفات كتبه التي تعدّ هوية الأدب الجزائري، لما تعالجه من قضايا أدبية ونقدية مثل كتابه " تاريخ الجزائر الثقافي" ⁽¹⁾، الذي أصل فيه للأدب الجزائري شعراً ونثراً لحقبة زمنية زادت عن أربعة قرون، من خلال الوقوف على الخصائص الفنية للنصوص الأدبية بالشرح والتفسير والتحليل، متّبعا منهجا جمع فيه بين التاريخ الحضاري للجزائر وبين التأريخ الأدبي والنقد النصّي التحليلي، لذا حاولنا التركيز على النقد الأدبي التطبيقي لأبي القاسم سعد الله في مجموعة من مؤلفاته بهدف رصد خصائص هذه التجربة النقدية والتي تعدّ الانطلاقة الحقيقية للنقد المنهجي التطبيقي في الجزائر.

لقد تنوعت آراء وأفكار أبي القاسم سعد الله في مجال الأدب والنقد، بل شكّلت جدلاً كبيراً في الساحة الأدبية الجزائرية والعربية على حد سواء، وقد جاءت آراؤه مبثوثة في ثنايا كتبه، فلم تخضع لتصنيف محدد إذ يتحدث عن نفس القضايا في أكثر من موضع ومن أهم هذه القضايا، قضية الشعر الحرّ والأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ⁽²⁾، ولتقصي خصائص الممارسة النقدية بفرعيها النظري والذي تحدّث فيه عن ماهية الشعر الجزائري قديمه وحديثه وتاريخ وجوده وحركة تطوره منذ 1500، و الجانب التطبيقي الذي خصّصه للدراسة التطبيقية حيث درس فيه مجموعة من النصوص الأدبية التي تراوحت بين أعمال شعرية ومجموعات قصصية ونماذج من مسرحيات جزائرية، لذا سناحاول التطرق لهذه الجهود في محاولة تصنيفها وترتيبها.

(1) _ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر ط6، الجزائر 2009 (10 مجلدات)

(2) _ ينظر: أبو القاسم سعد الله ، دراسات في الادب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب ط5 الجزائر 2006.

1_ أبو القاسم سعد الله ونقده للشعر:

لقد خصّص أبو القاسم سعد الله في كتابه "دراسات في الأدب الجزائري الحديث" مبحثاً تحدث فيه عن الشعر الجزائري وسمه بـ "تصميم للشعر الجزائري الحديث"، أشار في بدايته إلا أن أسباب تأخر الجزائر عن الركب الثقافي والأدبي إنما يعود لانقطاعها عن شقيقتها العربية وكذا رضا المفكرين العرب بهذا الانقطاع، فحبسوا الجزائريين على حد تعبير أبي القاسم سعد الله في دار غربة واعتبروا ما جاء من الجزائر إنتاجاً أجنبياً لا عربياً، إلى جانب صمت الجزائريين وجبنهم في الدفاع عن رسالة الأدب الجزائري، يقول أبو القاسم: "لعل الذي ساعد على بقاء الجزائر قرناً وربع قرن تحت الاستعمار هو الفراغ الأدبي الذي كانت تعانيه والذي جعل كل شيء صامتاً ولا ينس هادئاً لا يتحرك راضياً لا يتمرد"⁽³⁾.

إلا أنه وفي نفس السياق يشير إلى أن الأدب الجزائري وخصوصاً الشعر مهما اتّصف بالجودة أو الانحطاط إلا أنه كان تعبيراً عن الحياة التي عاشتها الجزائر في سنوات سجنها الطويلة فلم يكن الشعر "منذ ظهوره محدود الهدف، عميق الصوت، قائد الخطوات، إنما ظهر إلى جانب النشاط الوطني الآخر وسار معه دون أن يتقدّمه خطوة واحدة رائدة أو يتمرد على مفاهيم معينة ذاتية"⁽⁴⁾، بل يكفي كما يقول أبو القاسم سعد الله أنه: "احتفظ بميزة الصدق وأنه ظل صدى لخلجات الشعب وأناته وصوتا لكفاحه منذ استهل وما يزال معه جنباً إلى جنب لا يفتر ولا يتلفت إلى الوراء ولا تذهله الصفعات التي يتلقاها من وقت لآخر من يد غير رحيمة"⁽⁵⁾، ما يدلّ أنّ الشعر الجزائري قد لازم شعبه في فتراته الاستعمارية العصبية ليعبّر عن الروح الوطنية وحماسة التمرد على المستعمر والثورة وحب الوطن.

لقد حاول أبو القاسم سعد الله على المستوى النظري تقسيم الشعر الجزائري حسب الفترات التي يكثر فيها الاضطلاع الشعبي، وتعدّ نقطة تحوّل في مسيرة تحقيق الذات الوطنية في أشكالها المختلفة، وكما تجدر بنا الإشارة إلى أنّ هذا التصنيف يخضع إلى تتبع الحوادث التاريخية ومدى تأثيرها في الشعر فكان تصميمه له في هذا الشكل:

➤ شعر المنابر من أواخر القرن الماضي إلى 1925.

➤ شعر الأجراس 1925_1936.

(3) _ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الادب الجزائري الحديث، ص32.

(4) _ المصدر نفسه ص 32.

(5) _ المصدر نفسه ص32.

➤ شعر البناء: 1936_1945.

➤ شعر الهدف: 1945_1954

➤ شعر الثورة 1954.

فالملاحظ من هذا التصنيف أنّ موضوعات الشعر الجزائري كانت إصلاحية وطنية في معظمها تغلب عليه ظاهرة المناسبة "أي أنّه كان بعيدا عن الوحي الذاتي إلا في القليل النادر"⁽⁶⁾، ومن أهم خصائص الشعر الجزائري الحديث نذكر⁽⁷⁾:

- يمتاز بتفخيم المطالع وتصريحها واختيار أبعد الألفاظ وأوقعها .
- استعمال الدعاء والترحم والضراعة والأمر والنهي.
- يمتاز بالإطالة وتناول أغراض عديدة في القصيدة الواحدة ما يجعل الشاعر يعنون شعره ببيت كامل أو شطر وذلك لتعدد الموضوعات .
- هو شعر محلي قليل التعرض لقضايا عامة لأنّه صدر عن حياة الجزائر وصوّرها تصويرا واقعيا صادقا.
- اتجه هذا الشعر إلى الإيجاز والتلغيز ووضع كلمة مكان أخرى للتشويق والإغراء.
- يتميز الشعر الجزائري بجزالة اللفظ وحبك العبارة والمحافظة على القوالب العتيقة وفقدان الروح الفنية التجديدية، والابتعاد عن الوحدة العضوية والموضوعية في القصيدة، والكلف بالحكمة و التقرير والتعميم في الأحكام، والاحتواء على العبارات الدينية والتاريخية على أساس التضمن والاقتراس، كما يتميز بطول النفس والبساطة والتمهيد بالمقدمات الطويلة.
- بيد أنّ أبا القاسم سعد الله لم يتفان في الخروج عن هذا القالب التقليدي في الشعر يقول: "لم أجد سوى صنم يركع أمامه كل الشعراء بنغم واحد وصلاة واحدة، ومع ذلك فقد بدأت أول مرة أنظم الشعر بالطريقة التقليدية، أي كنت أعبد ذات الصنم وأصلي في نفس الحراب لكنني كنت شغوبا بالموسيقى الداخلية في القصيدة واستخدام الصورة في البناء"⁽⁸⁾، فبعد تأثره بالمذاهب الأدبية والمدارس الفكرية والنظريات النقدية نشر أول قصيدة متحررة في الشعر الجزائري الحديث بعنوان طريقي سنة 1955.

(6) _دراسات في الأدب الجزائري الحديث ص 48.

(7) _ المرجع نفسه ص 49.

(8) _ المرجع نفسه ص 50.

أ_ صور النقد التطبيقي للشعر في مؤلفات أبي القاسم سعد الله:

أهم أعماله النقدية	صور النقد التطبيقي عند أبي القاسم سعد الله
1_نقده لديوان "ألحان الفتوة لمحمد الصالح رمضان" (9)	من أهم صور النقد التطبيقي التي قدّمها أبو القاسم سعد الله عن ديوان ألحان الفتوة نذكر: 1_جاءت دراسة أبي القاسم سعد الله لهذا الديوان وجيزة ومقتضبة، إلا أنّها تعتبر رأياً نقدياً سجّل وجوده كبداية محتشمة للنقد التطبيقي في الجزائر، وخاصة في ظل جمود وصمت ثقافي وأدبي عمّ السّاحة الأدبية الجزائرية يقول: "ها قد مرّ نحو عام ونصف على انبثاق ألحان الفتوة ولا نرى من ردّها على الأسماع الظمأى...إلا سطوراً حمزة بكوشة في (البصائر) أو كلمات لمولود الطيباب في (هنا الجزائر) وما هذه الغفوة العامدة من أدبائنا إلا برهاناً لما يضمرون لهذا الديوان من نكران وجحود." (10) 2_إنّ نقد أبي القاسم سعد الله لهذا الديوان كان نقدًا ذاتيًا انطباعيًا تأثّر فيه إلى حد كبير بمدى تعبير صالح رمضان في هذا الديوان عن الأوضاع السياسية التي كانت تعيشها الجزائر ومعاناة الشعب الجزائري جرّاء الاستعمار يقول: "إنّها أوّل أنشودة انطلقت من فوهتها لتسمع هذا الشمال الخصب أهزّيج البطولة وصرخات الأبطال، وإنّها أوّل محاولة شعرية ناجحة ستتوج بأكاليل المجد والخلود، رغم التّنكر والجحود...وأثّما أجمل زهرة انضافة إلى الباقية السّحرية التي ينضدها محمد العيد...وغيرها تصعد إلى القمة بالشّعر الحرّ: التربوي والوطني على السّواء وتسخر بالطني الراكد على السّفوح و الوهاد." (11)، فأراؤه النقدية لم تنب على أسس موضوعية بل انبثقت عن عواطف وأحاسيس وانفعالات جرّاء الوضع الثقافي السائد من جهة والتعبير الصادق عن ذلك الواقع من طرف الشّاعر الصالح رمضان. 3_تميّز الأسلوب النّقدي لأبي القاسم سعد الله بالذاتية والتأثر بالمذهب الرومانسي وهذا ما يتجلّى في توظيفه لتلك التوليفات اللغوية كرموز الطبيعة. 4_صنّف أبو القاسم سعد الله الديوان من حيث الموضوع ضمن الشعر الحرّ التربوي والوطني كونه من الأناشيد الناشئة لبناء الأخلاق والقيم وبعث الروح الوطنية، كما فرّق بين

(9) _مجلة البصائر العدد 299 ديسمبر 1954 وعنوانه الأصلي: "اعزفوا ألحان الفتوة"

(10) _أبو القاسم سعد الله، تجارب في الادب والرحلة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص121

(11) _المرجع نفسه ص 122.

المواضيع الهادفة التي يجب على الشعراء أن ينظموا فيها أشعارهم وبين المواضيع الهابطة التي يصفها "بالطين الراكد". 5_ يتضح بجلاء توجه أبي القاسم سعد الله في نقد الشعر توجهها اصطلاحيا، إذ يحمل مسؤولية تقويم الإبداع الأدبي والنقدي ليرتقي إلى الجودة، فهو من أنصار الأدب الهادف فلا بد على حسب رأيه أن يكون للأدب رسالة وهدف نبيل يكتب من أجله يقول: "والأخ رمضان جندي ظهر في صفوف الأحرار الذين ينادون بخلق القيم الجديدة وتنمية المواهب في الناشئة، ومدّها بتيارات عنيفة من الحماس والتّمرّد بيمكن لها أن تجابه المستقبل بإرادة أقوى وآمال سحيقة الأبعاد".⁽¹²⁾	
يعتبر هذا الكتاب شعلة أنارت ظلمة النقد الأدبي الجزائري وما مرّ به من ركود فهو أوّل محاولة نقدية منهجية ناضجة على مستوى الشكل والمضمون على الرغم من تلك الزّلات التي وقع فيها سعد الله، إذ تناول الناقد مجموعة من القضايا النقدية في شعر محمد العيد آل خليفة كقضية التقليد والتجديد والعروبة والثورة... ألخ وكذا الأغراض الشعرية والخصائص الفنية والجمالية لشعره فقد قسّم دراسته إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول: تطرق فيه لحياة الشاعر من خلال وصف البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية التي سادت الجزائر منذ نهاية القرن 19، أما القسم الثاني فتناول فيه شعر الشاعر في حين خصّص الفصل الثالث لدراسة نماذج من شعر محمد العيد آل خليفة، ومن الآراء النقدية التي يمكننا رصدّها في هذا الكتاب نذكر: 1_ زواج أبو القاسم سعد الله في دراسته النقدية لشعر محمد العيد آل خليفة بين المنهج التاريخي والمنهج التأثري وسنحاول رصد أهم الآراء النقدية التي تعكس هاذين التوجهين: أ_ المنهج التاريخي: ويتجلى في سرده التاريخي لحياة "محمد العيد آل خليفة في الفصل الأول من الكتاب، فقد حاول نقلها بتواريخها الصحيحة وحديثاتها الدقيقة مما أضفى على الدراسة الصبغة التاريخية التي تتميز بالدقة والتمحيص في الحوادث التاريخية دون إبداء الناقد لرأيه، هذا من جهة ومن جهة ثانية قدّم أبو القاسم سعد الله وصفا تاريخيا للوضع الاجتماعي والثقافي الذي كان سائدا آنذاك وتزامن مع ما ألفه محمد العيد آل خليفة من نتاج شعري	كتابه: " محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث" 1961

⁽¹²⁾ _ المرجع السابق ص 122.

يقول: "عكفت منذ مدة على دراستها وربطها بالأحداث والمناسبات التي قيلت فيها وتتبع تطور الشاعر خلال تجربته الشعرية الطويلة"⁽¹³⁾.

—تميّز أسلوب أبي القاسم سعد الله في هذا الكتاب بالعرض التاريخي للنصوص الشعرية من خلال شرح الألفاظ دون إبداء رأيه أو إضافة تحليل أو تعليق، فقد غلب على الرجل ميله للدراسات التاريخية والبحث عن الحقائق المغمورة، وهي حقيقة وجدت طريقها إلى التجسيد في أعماله اللاحقة "كتاريخ الجزائر الثقافي"، وما يدعم فكرتنا في تتبع أبي القاسم سعد الله للمنهج التاريخي في هذا الكتاب ما يلي:

—إيمانه القوي بأن ما يكتبه محمد العيد آل خليفة هو تصوير لتاريخ الجزائر وواقع معاناة الشعب الجزائري وكفاحه ضد المستعمر، يقول سعد الله: "صوّر الكفاح الجزائري على اختلاف أشكاله"⁽¹⁴⁾، فإذا اقتصر عمل المؤرخ على نقل الواقع فإن المؤرخ أو الأديب ينقبه من خلال مشاعره وأحاسيسه.

— في حديثه عن المؤتمر الإسلامي وربطه بمواضيع الشعر السياسي عند محمد العيد فصل في أكثر من صفحتين خلفيات هذا المؤتمر التاريخي.⁽¹⁵⁾

ب_ المنهج التأثري: من خلال اطلاعنا على الكتاب تبين لنا إتباع أبي القاسم سعد الله للمنهج الانطباعي في مجموعة من آرائه تتضح في النقاط التالية:

—استخدامه للعبارات التي تدلّ وبشكل صريح عن الأحكام الذاتية كقوله: "الشاعر الحكيم، الرجل المحبوب، أجود بيتين، أحسن مرتبة..." فحكمه النقدي على شعر محمد العيد آل خليفة كان ذاتيا انطباعيا ومعمما، إذ هناك بعض القضايا التي تحتاج إلى تعليق نقدي وتوظيف مصطلحات نقدية صارمة كحديثه في نهاية الفصل الأول عن شعر محمد العيد حين قال: "ونحب أن نختتم هذا الفصل بكلمة عن شعره في هذه فقد كان شاعرا غنيا

⁽¹³⁾ — شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، دار الرائد، ط5، الجزائر 2007 ص18.

⁽¹⁴⁾ — المرجع نفسه ص130

⁽¹⁵⁾ — ينظر: المرجع نفسه ص150.

بالتجربة والحوادث والإشارات التاريخية والأدبية والأسماء الحديثة، كما أصبح يمتاز بالجزالة والهدوء النفسي... واتسع فيه أفق الشاعر⁽¹⁶⁾، فرأي أبي القاسم في شعر محمد العيد آل خليفة لم يدعّم بشواهد شعرية يوضح من خلالها الجزالة والهدوء .

وتشير الدكتورة حفيظة زين أنّ دراسة أبي القاسم سعد الله تحاول أن تجعل من نص محمد العيد آل خليفة تحفة أدبية، إذ لم يخصص للدراسة الفنية إلا ثماني عشرة صفحة من البحث كله، والذي تزيد صفحاته عن ثلاث مائة⁽¹⁷⁾، ومن أهم الآراء النقدية التي توجّه بها أبو القاسم سعد الله في الجانب الفني بشعر محمد العيد آل خليفة نذكر:

2_ سهولة الألفاظ ووضوحها وبساطتها يقول: إنك تقرأ شعره فلا تحتاج إلى قاموس لتفسير الغامض من الألفاظ ولا كد ذهني للوصول إلى ما يريد من المعاني⁽¹⁸⁾، فقد اكتفى أبو القاسم بهذه الملاحظة والتي يعد محوراً من أهم الآليات الفنية للكتابة الشعرية، فالبساطة في كتابه الشعر هي سيف ذو حدين، باعتبار أنّ هذه البساطة قد أضفت الصبغة التقريرية والمباشرة في شعر محمد العيد آل خليفة، فالأسلوب المباشر لا يحدث ذلك الشغف عند المتلقي "فمهمة الألفاظ في العمل الشعري لا تقتصر على المعاني الذهنية بدلالاتها المعجمية المحددة فحسب، وإنما مهمتها الأولى أن تثير الإحساس والمشاعر لدى المتلقي بصورها وظلالها"⁽¹⁹⁾، ويرجع أبو القاسم سعد الله سهولة ألفاظ شعر محمد العيد آل خليفة وسذاجتها إلى سذاجة الجمهور وذلك في قوله: "صحيح أنشعر محمد العيد ضعيف الخيال في معظمه ولكن هذا لم يحل دون نجاحه في المجتمع الذي كان يقيه على سمعه، فهو مجتمع ساذج ولعل فيه التلاميذ الصغار الذين لا يقرؤون ولا يكتبون... وأكبر ظني أنّ هذا المجتمع الساذج البسيط هو الذي جعل محمد العيد أن يلجأ إلى هذا الشعر"⁽²⁰⁾

3_ سيطرة التوجه الإصلاحية والتعليمية في شعر محمد العيد بتأثره بأفكار جمعية العلماء المسلمين فطغى على شعره الوعظ والإرشاد.

(16) _ المرجع السابق، ص 136

(17) _ محمد العيد تاورته، النقد الأدبي في آثار أبي القاسم سعد الله، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة 2014_2015. ص

(18) _ شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة ص 213.

(19) _ محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1952_1975، ص 276.

(20) _ أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة ص 214.

4_ تحدّث عن الصّورة الشعرية فذكر بعض الصّور التي جدّد فيها محمد العيد وخالف فيها الشّعـر القديم كحديثه عن جسر قسنطينة والذي حكم من خلاله بأنه أمهر من أي رسام وأي فنان معمّما حكمه على كل شعره دون أن يستشهد ببيت واحد.

2_ أبو القاسم سعد الله ونقده للرواية والقصة والمسرحية:

➤ في نقده للرواية :

تجدر بنا الإشارة في حديثنا عن نقد الرواية والقصة والمسرحية عند أبي القاسم سعد الله أن ننظر إليها في إطارها الزمني الذي كتبت فيه، ففي 1959 أين كان مفهوم هذه الأجناس الأدبية لا يزال بكرة إذ انصرف النقاد إلى الاهتمام بموضوع الرسالة التي يحملها العمل الأدبي لا على شكله وتقنياته الجمالية، في حين انصرف أبو القاسم سعد الله على تتبّع تلك التقنيات والآليات المنهجية التي تميّز بها النصوص النثرية.

استهل أبو القاسم سعد الله دراسته النقدية للنصوص النثرية في كتابه "دراسات في الأدب الجزائري الحديث" سنة 1966 عن قضية أثر الاستعمار والظروف القاسية والحروب في ميلاد الظواهر الأدبية وتنميتها وتطويرها يقول: "الظاهر أن الاستعمار لا يقتل الأدب ولكن يلونه بألوان مختلفة فيخلق مثلاً أدب الرمز والأدب المنحرف والشاذ، ويخلق الصّراع بين الأدب المتحرر والرجعي، والظروف لا تقتل الأدب ولكنها تكيفه فتجعل منه الأدب الدّاتي أو الموضوعي والأدب الهادف التعبيري أو النموذجي أو الحيادي أو الواقعي"⁽²¹⁾، ليؤكد بعدها أن الحرب هي التي تعطي الأديب فرصة للإبداع والانطلاق وتحطيم تلك المفاهيم السائدة فتسلحه بطاقات جديدة لا يمكن أن يظفر بها في ذلك الركود وسيادة العادات والتقاليد⁽²²⁾، بذّا فقد حاول سعد الله إثبات هذه الفرضية من خلال دراسته للنصوص النثرية وتحليلها باحثاً عن كيفية توظيف النثر الجزائري عل اختلاف أجناسه لشخصية البطل.

يشير أبو القاسم سعد الله في بداية حديثه عن الرواية أنها أكثر "التصاقاً بالأرض من الشعر"⁽²³⁾، ما أدى إلى ظهور المذهب الواقعي الذي يعدّ مجالا خصبا ينهل منه الكتاب والروائيون الجزائريون لترجمة واقع البلاد وما يعانیه شعبها من اضطهاد وانكسار، لذا فمما لا ريب فيه أن ترتبط صورة البطل في الرواية الواقعية في نظر أبي القاسم سعد الله بالواقع المرير والقاسي فيقدم للمتلقّي صورة معمّمة عن هذه الشّخصية يقول: "إنّهم أبطال واقعيون يعيشون في مستوى الشعب المادي. إنّهم يشعرون ويتفاعلون معه سلبا وإيجابا ليسوا خياليين أو مثاليين كما أنّهم

⁽²¹⁾ _ أبو القاسم سعد الله دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص56.

⁽²²⁾ ينظر: المرجع نفسه ص56

⁽²³⁾ _ المرجع نفسه ص56.

ليسوا انحرافيين أو رجعيين إنهم أفراد تتمثل فيهم طبائع البيئة بخيرها وشرها بحقدتها وتعاونها، بفشلها وانتصارها بالماضي وتطلعها إلى المستقبل⁽²⁴⁾، ليقدم بعدها حكمه النقدي والنهائي لصورة البطل في الرواية الجزائرية ويتجلى هذا بوضوح في قوله إنّه: "شخص عادي ركّز الكاتب فيه وعليه كل مشاعر المواطن فليس له مؤهلات خاصة ولا استعدادات خارقة"⁽²⁵⁾

حاول أبو القاسم تأكيد رؤيته هذه حين درس شخصية عمر بطل رواية "الدار الكبيرة" والحريق للروائي محمد ديب حيث ركّز في دراسته على معاناة عمر الاجتماعية وصراعه مع الحياة دون أن يتطرق للميزات الفيزيولوجية والنفسية للشخصية البطل ودلالاتها وأبعادها، كما أنّه لم يتعرض بالدراسة لعناصر الرواية الأخرى المساعدة في بناء الرواية وكذا الشخصية البطل ونموها، إذ ركّز فقط على ما يخدم فرضيته التي انطبق منها وهي "واقعية فكرة البطولة في الرواية الجزائرية"⁽²⁶⁾، إلّا أنّ ما يشفع له انصرافه عن التقنيات الأخرى في الرواية إعلانه الصريح بأنّه يركّز في دراسته على زاوية واحدة في الرواية فقط .

➤ في نقده للقصة:

ظهرت في فترة السبعينيات والثمانينيات مجموعة من الدراسات النقدية التي اهتمت بدراسة القصة من حيث الموضوع أين أهملت فنيات العمل الأدبي إلّا أنّ أبا القاسم سعد الله لم يبتعد في معالجته لفكرة البطل عما احتداؤه في دراستها في الرواية، والبطل في القصة صار ممثلاً لفكرة وطنية أو فكرة مضادة (الخيانة) وهذه النظرة كما يشير أبو القاسم سعد الله تعود إلى تطور المفهوم السياسي في الجزائر الذي بات يؤمن بأنّ الاستقلال هو الحل، "فمنذ الحرب العالمية الثانية دخل هذا المفهوم مرحلة جديدة ايجابية تقتضي العمل على التخلص من الاحتلال"⁽²⁷⁾، لذا فقد تجلّت صورة البطل في صورتين:⁽²⁸⁾

➤ بطل صادق يمثّل الشعب وكفاحه ونضاله من أجل الاستقلال.

➤ بطل خائن امتطاه الاستعمار لتحطيم الكفاح والثورة.

(24) _ المرجع السابق ص 57.

(25) _ المرجع نفسه ص 57.

(26) _ محمد العيد تاورته، النقد الأدبي في آثار أبي القاسم سعد الله، ص 179

(27) _ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ص 60.

(28) _ محمد العيد تاورته، لنقد الادبي في آثار ابو القاسم سعد الله ص 189.

بيد أن اهتمام أبي القاسم سعد الله انحصر في دراسته للبطل من جانب المضمون الذي يخدم إصلاح المجتمع وإخراجه من الظلمات إلى النور منصرفاً عن الجوانب الشكلية.

➤ في نقد المسرحية:

يعود ظهور المسرح في الجزائر إلى "بداية القرن العشرين، وإن كان البعض يرجعها إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر حين ظهر مسرح خيال الظل والقراقوز"⁽²⁹⁾، إلا أنه انتعش ولاقي نجاحاً كبيراً على يد رشيد القسنطيني في الثلاثينات.⁽³⁰⁾

يشير أبو القاسم سعد الله في كتابه "دراسات في الأدب الجزائري الحديث" أنّ نقاد المسرح الواقعي يؤكدون فكرة أنّ النثر قد جنى على المسرحية وما يسوقها من الأهداف، إذ يصرون على أنّ لغة الشعر أنسب وأجل قدراً وأكثر قابلية للخلود لما تحمله من عناصر باقية تتجدد طرافتها ودهشتها كلما أعيد تمثيلها⁽³¹⁾، إلا أنّ أبا القاسم يرجع خلود المسرحية إلى عوامل أخرى بعيدة عن لغة الشعر إذ يقول: "والذي لا شك فيه أنّ هناك مستوى لغوياً وضمينياً يجب أن تحافظ عليه المسرحية واقعية كانت أو رومانتيكية، تاريخية كانت أو معاصرة. وهذا المستوى هو وحده الكفيل بإعطاء المسرحية قوة الحياة وازدهارها بعناصر البقاء والتجدد"⁽³²⁾، فالعبرة ليست بالشكل (شعراً أو نثراً) بل هناك عناصر أخرى موضوعية تظهر تميز المسرحية كالطرافة والحيوية والصدق العاطفي، ولأنّ للمسرح خصوصية فنية وتقنيات إبداعية يتفرد بها ويختلف عن الأجناس الأدبية الأخرى، فقد يوظف لغة الشعر والنثر من حيث اللغة، إلا أنّه ينبني على الحكمة الدرامية وبناء الشخصية وتصوير صراعاتها النفسية والاجتماعية والثقافية، وكذا يستدعي أدوات فنية أخرى كلغة الراوي والغناء والرقص إلا أن أبا القاسم سعد الله ومن خلال آرائه المبثوثة في كتابه السابق الذكر يركز على المضمون أكثر من الشكل.

درس سعد الله ثلاث مسرحيات في إطار موضوع واحد هو فكرة (البطولة في المسرح الجزائري) مثلما تطرق لها في الأجناس النثرية السابقة الذكر، وقد عنون دراسته في كتابه "دراسات في الأدب الجزائري الحديث" تحت عنوان "شخصية البطل في الأدب الجزائري"⁽³³⁾.

(29) _ أحمد بيوض، المسرح الجزائري نشأته وتطوره، دار هومة الجزائر، 2011، ص22.

(30) _ عبي الراعي، المسرح في الوطن العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت 1979، ص459.

(31) _ ينظر: أبو القاسم سعد الله، دراسات في الادب الجزائري الحديث، ص61.

(32) _ نفسه ص61.

(33) _ نفسه ص56.

أ_ صور النقد التطبيقي للرواية والقصة والمسرحية عند أبي القاسم سعد الله:

سنحاول تتبع بعض النصوص التي عالجها أبو القاسم سعد الله لننفذ الغبار عن خصوصية هذه التجربة النقدية من حيث المنهج، وآليات الممارسة النقدية وتوجهات سعد الله الفكرية في تحليله للنصوص النثرية التي اختارها للدراسة، والتي ارتأينا أن نركز على بعض صورها:

أهم النصوص النثرية المدروسة	صور النقد التطبيقي للأجناس النثرية عند أبي القاسم سعد الله.
1_ في الرواية:	— رواية العتاريس لإدريس الشرايبي⁽³⁴⁾: تدور أحداث هذه الرواية في بلد أجنبي وهو فرنسا بحيث أراد أن يرصد فكرة البطولة خارج البلد الأم بحيث ركز على موضوع الرواية دون مراعاة الشكل الفني، فقد لحّص مضمون الرواية بشكل سطحي مركزا على صورة البطل الذي ينزل إلى المستوى نفسه الذي يعيشه مواطنوه في باريس"،⁽³⁵⁾ ثم اضطر سعد الله إلى تغيير الفضاء المكاني الذي يدلّ على معاناة المهاجر العربي إلى فرنسا حتى وإن كان فنانا — من الذلّ والهوان وخلص في الأخير إلى الفرضية التي افترضها في البداية وهي أنّ البطل هو المجتمع بعينه — رواية غادة أم القرى لأحمد رضا حوحو: اختلفت الآراء حول تصنيف هذا العمل إن كان قصة أو رواية، إلا أنّ أبا القاسم سعد الله لم يشير إلى هذا ولم يتحدث عنه. اختلف جنس البطل في هذه الرواية حيث أخذت المرأة "زكية" دور البطلة وهي لا تختلف في تركيبها الاجتماعية عن باقي الأبطال الذين درسهم سعد الله، فهي تمثل كل النساء المحرومات والمضطهدات اللواتي يعشن تحت وطأة المجتمع. وفي الأخير يقدم لنا أبو القاسم سعد الله صورة عن البطل في الرواية الجزائرية فيؤكد أنّه ليس مثلاً أعلى ونموذجاً خارقاً... وإنما هو إنسان واقعي فيه كل ما في الواقع"⁽³⁶⁾

⁽³⁴⁾ — وعلى الرغم من أنّ الروائي غير جزائري ألا أنه لم يسقط الحديث عنه في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي، ص 58.

⁽³⁵⁾ — أبو القاسم سعد الله، تاريخ الأدب الجزائري الحديث، ص 60

⁽³⁶⁾ — أبو القاسم سعد الله، تاريخ الأدب الجزائري الحديث، ص 60

2_ في القصة

الرصيف النائم لزهور ونيسي: هي مجموعة قصصية قام سعد الله بدراستها في كتابه (تجارب في أدب الرحلة 1979)⁽³⁷⁾.

اقتصر جهد أبي القاسم سعد الله في دراسته لهذه القصة على نقل ما قالته زهور ونيسي حول مجموعتها القصصية فاكثفى بنقل ما قدمته حولها، وما يؤكد كلامنا هذا استخدامه لضمير المؤنث الغائب لنقل ما قالته القاصّة عن نفسها كقوله: "وقّرت، أجابت، قدّمت، ذكرت، تتحدث، تصف" إلى جانب قوله الصّريح بأنّ زهور ونيسي قد وقّرت كثيرا من المشقة على المهتمين حين قدّمت نفسها وعملها إلى القراء وأجابت على بعض الأسئلة التي يمكن أن تطرح حول رأيها في القصة وبدايتها في الكتابة ومصدر إلهامها الأدبية⁽³⁸⁾، إلا أنّ أبا القاسم سعد الله لم يبد رأيّه بل كان مستسلما لكل ما قالته زهور ونيسي فاكثفى بتلخيص ما جاء في مقدمتها، يقول: "ويبدو أن المؤلفة لم تترك مجالا حتى للنقاد فهي تصف أقاصيصها في مقدمة العمل بأنّها "بسيطة كبساطة الشعب عامّة... وقطع نابضة وصور حية تبرز بعض ملحمة الثورة الجزائرية وتجسمها بكل ما فيها من أبعاد وإعجاز وأساطير"⁽³⁹⁾، إلا أنّ طبيعة الناقد تفرض عليه التعليق والشرح والدراسة هذا ما لم يقدمه سعد الله.

ولعل السبب في هذه السطحية في الدراسة يعود كما صرح أبو القاسم سعد الله "كيف نتحدث عن نقد أدبي جزائري ونحن لا نكاد نتحدث عن وجود لأدب جزائري" وخاصة هذا الجنس الأدبي الجديد وهذا ما جعله واصفا منبها النقاد لالتفات لهذا العمل وغيره.

جاء أسلوب أبي القاسم سعد الله النقدي إنشائيا لم يصبغ بمصطلحات نقدية تؤكد توجهه كناقد للعمل إلا ما ذكره في بداية تقديمه للعمل حين صنّفه ضمن الأدب النسوي ولكنّه لم يتحدّث عن هذا التوجه الجديد في الأدب الجزائري.

(37) ينظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الادب والرحلة، ص143.

(38) المرجع نفسه ص143.

(39) المرجع نفسه ص144.

3_ في نقد المسرحية

__مسرحية بلال محمد العيد آل خليفة: يواصل أبو القاسم سعد الله دراسته النقدية تحت لواء المنهج التاريخي فنجدّه يشير إلى أن هذه المسرحية هي المسرحية الشعرية الوحيدة في المسرح الجزائري، حيث صوّر محمد العيد البطل رمزا للمقاومة والعذاب مترجما من خلاله واقع أمته التي كانت تناضل وتكافح من أجل الحرية.

__اتبّع أبو القاسم سعد الله منهجية نقدية اختلفت نوعا ما عن تلك الدراسة السطحية لشخصية البطل في الرواية والقصة إذ قام باستقصاء الظاهرة وتحليلها ثم إبداء الرأي حولها ما يؤكّد تطور الممارسة النقدية عنده لأنّه قام بتقديم بعض الأبيات الشعرية من المسرحية مستدلا بها ليبين مقاومة البطل وكفاحه في سبيل الحرية .

__ كما سار أبو القاسم على نفس الدّرب الذي سار عليه في دراسته للقصة والرواية فقام ملخصا لمسرحيته بطريقة سردية يبيّن فيها للقارئ فهمه للنص المسرحي، إلّا أنّ تلخيصه يفتقر إلى الكثير من مقومات الدّراسة النقدية الموضوعية الدّقيقة "كما أنّ تلخيص سعد الله للنصوص جعلها تفتقد التوازن بينهما فلا نعرف جنس النصّ إلّا عندما يقول الناقد القصة الفلانية أو الرواية الفلانية أو المسرحية الفلانية، وهذا الأسلوب يطّلع الدراسة بالعمومية" (40).

__ دراسته لمسرحية حنبل لتوفيق المدني: هي مسرحية نثرية اختارها الناقد كنموذج ثاني للدراسة استهلها بنفس تقنيته السابقة في الدّراسة وهو تلخيص للمسرحية في اثني عشرة سطرا دون أن يبدي رأيه أو أن يشير إلى تقنيات الكتابة المسرحية، إلّا حينما تحدّث عن الشخصية البطل وميزاتها "يقول فالبطل شخص ممتاز مؤيد بكل خصائص القوة والبأس والجرأة الوطنية..."، ما يؤكّد اهتمام أبي القاسم سعد الله في دراسته هذه اهتمامه بالمضمون والبحث عن الهدف المنشود الذي يتلخص في الإصلاح والقومية والحرية على حساب الشكل .

(40) __محمد العيد تاورته، لنقد الادبي في آثار ابو القاسم سعد الله ص 210.

— تلخص نقد أبي القاسم سعد الله في استجلاء صور الكفاح والدفاع عن المبادئ الوطنية والإسلامية إلا أنّ هذا لم يمنعه من مخالفة صاحب المسرحية في النهاية المساوية التي حدّدها لحنبل يقول سعد الله: "لو عمد الكاتب إلى تغيير بسيط لانتصار البطل في النهاية... إنّ الكاتب لم يراع الجمهور وشدة إعجابهم بالبطل المناضل وهو يسقيه السم ليختم به صفحة حياته الرائعة" (41)، فقد فضل الانتصار ولكن موت البطل في نظرنا ليس انهماك بل هو بداية تحمل أبعادا جديدة فقد تكون حافزا قويا للتأثر لروحه والظفر بالاستقلال من قبل الشعب.

— التفت أبو القاسم سعد الله في لحظة موجزة إلى اللغة والأسلوب في المسرحية يقول سعد الله: "لكن أسلوب أحمد توفيق المدني الخطابي المفعم بالعواطف والمبالغات التصويرية قد قرّب لغة المسرحية من لغة الشعر" (42)، إلا أنّه لم يظهر أبعاد هذه الفكرة النقدية والتي تتلخص في كون لغة هذه المسرحية هي لغة شعرية أكثر منها نثرية إلا أنّه لم يقدم أدبه على هذا القول من خلال الاستشهاد بتوليفات لغوية من المسرحية أو إظهار مواطن ارتقاء اللغو إلى الشعر.

خاتمة:

من خلال هذا العرض الموجز لأهم صور النقد التطبيقي شعرا ونثرا في مجموعة من مؤلفات أبي القاسم سعد الله النقدية توصلنا الى بعض النتائج التي يمكن تلخيصها كما يلي:

➤ تعدّ جهود أبي القاسم سعد الله في كتابه "دراسات في الأدب الجزائري" الحديث شعلة أنارت درب النقد الادبي الجزائري بعدّه أوّل مؤلف نقدي حاول أبو القاسم سعد الله من خلاله تطبيق المنهج التاريخي في الجزائر الذي كان من أكثر المناهج النقدية انتشارا في العالم العربي.

(41) — أبو القاسم سعد الله، دراسات في الادب الجزائري الحديث ص 63.

(42) — نفسه ص 65.

- تميّزت الأحكام النقدية لأبي القاسم سعد الله بالانطباعية والذاتية البعيدة عن الدراسة الموضوعية، إضافة الى تعميم تلك الأحكام النقدية فمن خلال البيت الواحد يصدر حكما نهائيا على شعر الشاعر، وما يؤكد فكرتنا مقولته التي ختم بها دراسته لأشعار محمد العيد آل خليفة: "وخرجت بعد كل ذلك بهذه الدراسة التي لا تعدو أن تكون جولة في ديوان وانفعالا بأحداث، ورأيا في تجربة الشاعر".
- ومن سمات الدراسة النقدية للنصوص النثرية تركيزه على المضمون الذي كان سائدا في بداية الرواية الجزائرية وهو إصلاح المجتمع ومواجهة الآفات الاجتماعية دون الاهتمام بالخصائص الفيزيولوجية والنفسية للشخصية البطل، وأبعادها الدلالية.
- ما جعل عمل سعد الله متميزا في جانب النقد التطبيقي على النصوص النثرية هو التفاتته لشخصية البطل في الرواية واهتمامه بها على الرغم من قلة النتاج الروائي.
- لم يتقن أبو القاسم سعد الله توظيف المصطلحات النقدية ما يجعلنا نصف الدراسة بنقص الدقة العلمية كمصطلح القصة الذي تداخل عنده، ومصطلح الأقصوصة إلى حين صدور كتاب "تاريخ الجزائر الثقافي" أين عرّف القصة والأقصوصة.
- على الرغم من اقتناع أبي القاسم سعد الله بأنّ للمسرح تقنيات شكلية خاصة إلاّ أنّه اهتم بالمضمون على حساب الشكل الفني، فلو قرن الشكل بالمضمون لاكتملت رؤيته النقدية كحديثه أيضا عن القصة والرواية ما يؤكد وعيه بخصوصية كل جنس أدبي إلاّ أنّه انصرف عن هذا في التحليل النقدي.